﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [المرسَلات: 29 - 34]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

انتقالٌ من البُرهانِ إلى الجزاء، وتجلٍّ للوعيدِ بَعْدَ البلاءِ

لمّا بيَّن الله سبحانه أدلَّةَ قُدْرَته في الخَلْقِ والإنشاء، وأخبر أنَّ للمكذِّبين بالله تَعالى وأنبيائه سوءَ العذاب؛ بيَّن هنا نوعَ ذلك العذابِ بما يَحارُ فيه أولو الألبابِ، ويَخِرُّ مِن هَولِه كُلُّ مُخْبِتٍ أوّابٍ؛ إظهارًا لمصير المكذّبين بعد تمامِ الحُجّة ووضوح البيِّنة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شُعَبٍ﴾: (شعب) أصْلانِ مُخْتَلِفانِ، أحَدُهُما: يَدُلُّ على الافتِراقِ، والآخَرُ على الاجتِماعِ[2]، والشِّعْبُ: القَبيلَةُ المُتَشَعِّبة من حيٍّ واحد، من قبائل العَرَب والعجم، وجمعه: شُعوبٌ[3]، والشَّعْب أكبرُ مِن القَبيلَة، ثمَّ القَبيلَة، ثمَّ العِمارَة، ثمَّ البَطن، ثمَّ الفَخِذ[4]، والشِّعب من الوادي: ما اجْتَمَعَ منهُ طرَفٌ، وتفرَّق طرَفٌ، فإذا نظرتَ إليه من الجانب الذي تفرّق؛ أخذتَ في وهْمِكَ واحدًا يتَفَرّق، وإذا نظرتَ مِن جانب الاجتماع؛ أخذتَ في وهْمِكَ اثنَيْنِ اجْتَمَعا[5]، وشَعِبْتَ الشَّيء؛ إذا جمعتَهُ، وشَعَبْتُهُ؛ إذا فرّقتَه، وشعَبْتَهُ؛ إذا أصلحته[6]، وقوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾، يَعْني: دُخان جَهَنَّمَ إذا ارْتَفَعَ؛ افتَرَقَ ثَلاثَ فِرَقٍ[7].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 185.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شعب).
(3) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (شعب).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (شعب).
(5) الرّاغب، المفردات: (شعب).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (شعب).
(7) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 306، والبيضاويُّ، أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل: 5/ 276.

2) ﴿ٱللَّهَبِ﴾: أصل (لهب) يدلُّ على ارتفاعِ لِسانِ النّار[1]، واللهبُ: اضطرام النّار الَّذي قد خَلَص مِن الدُّخان، واللهيبُ: ما يبدو مِن اشتعال النّار، ويقال للدُّخان وللغبار: لَهَبٌ؛ إمّا لأنَّه ينشأ منه أو على التَّشبيه في الارتفاع، كما سُمّي به الغُبارُ كذلك[2]، والتهبت النّارُ، وتلهَّبت: اتَّقدت، وألهبتُها: أوقدتُها[3]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾، أي: لا يدفَعُ مِن حرّ النّار شيئًا[4].

3) ﴿كَٱلۡقَصۡرِ﴾: أصل (قصر) يدلُّ على ألّا يبلُغَ الشَّيء مَداهُ ونهايته، والآخر على الحَبْس، والأصلان مُتقاربان[5]، والقِصَرُ: خلاف الطّول، وهما مِن الأسماء المُتَضايِفَة التي تُعْتَبَر بغَيْرِها، وقَصَّرْتُ كذا: جعلته قَصيرًا، وقَصَرْتُ كذا: ضَمَمْت بعضَه إلى بعض، ومنه سُمّي القَصْرُ، وجمعه: قُصورٌ[6]، والقصر أيضًا: أصول الشَّجر، والقَصْرُ: واحد القُصور[7]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾: هوَ البِناءُ العَظيمُ[8].

4) ﴿جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾: أصل (جمل) يدلُّ على تجمُّعٍ وعِظَمِ الخَلْقِ، وله مَعْنًى آخرُ، وهوَ الحُسْنُ[9]، ومِنه: الجَمال، وهو الحُسْنُ الكثير، والفعل منه: جَمُل يجمُل[10].

واعْتُبِر منهُ مَعْنى الكثرة، فقيل لكلِّ جماعةٍ غير مُنْفَصِلَة: جُمْلَة، ومنه قيل للحِساب الذي لم يفصَّل، والكلام الذي لم يُبيَّن: مُجْمَل[11]، وحقيقة المُجْمَل: هو المُشْتَمِل على جملةِ أشياءَ كثيرةٍ غير مُلخَّصة[12]، والجَمَلُ يقال للبَعير؛ إذا بَزل، وجمعه: جِمال وأجْمال وجِمالات وجَمائِل[13]، وقوله تعالى: ﴿جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ﴾ جمع: جِمالة، والجِمالَة: جمع: جَمَل[14]، و﴿صُفۡرٞ﴾ جَمْعُ أصفرَ، يَعْني: لَوْنَ النّارِ[15].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لهب).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (لهب).
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح: (لهب).
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 30/ 545.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قصر).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (قصر).
(7) الرّاغب، المفردات، والجوهريُّ، الصِّحاح: (قصر).
(8) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 306.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جمل).
(10) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (جمل).
(11) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (جمل).
(12) الرّاغب، المفردات: (جمل).
(13) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة، والجوهريُّ، الصِّحاح، والرّاغب، المفردات: (جمل).
(14) الرّاغب، المفردات: (جمل)، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 307.
(15) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 307.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جـزاءُ المُكذِّبين بآياتِ الله تَعالى نـارٌ عظيمة تُحيطُ بهِم مِن كلِّ اتِّجاه

يخبرنا الله ﷻ في هذا النَّصِّ القرآنيِّ المبارك عن حال هؤلاء المكذِّبين بيوم القيامةِ وما فيه مِن المعاد والجزاء والجنَّة والنّار، مبيِّنًا أنَّهم سَيُقال لَهُم يوم القيامة على سبيل الإذلالِ والإهانة: سيروا أيُّها المشركون إلى عذاب جهنَّم الَّذي كنتُم به تكذِّبون في الدُّنيا، سيروا فاستظلّوا بدُخانِ جهنَّم الَّذي يتفرَّع منه ثلاثُ قِطَعٍ مِن النّار، والَّذي ليس بظلٍّ على سبيل الحقيقةِ، فهو لا راحةَ ولا طُمأنينةَ فيهِ، ولن يَدْفَعَ عنكم من حرِّ جهنَّم شيئًا؛ لأنَّها تقذِفُ مِن النّار بشَرَرٍ عظيم متطاير، كلُّ شرارة منها كالبناءِ العالي المرتفعِ المشبَّه بالإبل السّود الَّتي يميل لونُها إلى الصُّفرة، ثُمَّ خَتَم سبحانه النَّصَّ بهذا التَّهديدِ المتمثِّل في الهلاك والعذابِ الشَّديد لكلِّ مكذِّب بآياتِ الله تَعالى ووعده ووعيدهِ سُبْحانَهُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصْلِ الآياتِ عَن سابِقَتِها:

مِـن شـأن الاستِـئـنـافِ البيانيِّ أن يُفصَل عـن سـابِـقِـهِ، ويُمهِّد لِلاحِقِهِ

قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ جملة مستأنَفة استئنافًا بيانيًّا، لوقوعِها في جوابِ مقدَّرٍ أثارتْهُ الجملةُ قبْلَها، والتَّقديرُ: "ما يُصْنَع بالمكذِّبين يومئذٍ؟ وتقديره: يقال لهم يومئذٍ: انطلقوا، أي: سيروا ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدُّنيا، يعني: نارَ جهنَّم"[2]. فبين الجملتين الكريمتين شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وهو المسمّى: الاستئنافَ البيانيَّ.

الغرَضُ مِن الأمر ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، ونكتَةُ التَّعبير بالانطِلاقِ، وتَعيين المُخاطَبينَ:

توجيهُ الكُفّار إلى نارِ العَذاب، فقَدِ استَحَقّوا بجَرائِمِهِم أشدَّ العِقابِ

قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ "خطابٌ للمكذِّبين في يوم الحَشْر، فهو مقولُ قولٍ محذوفٍ دلَّ عليه صيغَةُ الخطاب بالانطلاق، دون وُجود

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 304، ونخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر: 1/ 581.
(2) ثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 167.

مخاطَب يُؤمَر به الآن، والأمر بانطلاقهم مستعمَل في التَّسخير؛ لأنَّهم تَنْطَلِقُ بهم ملائكَةُ العذابِ قَسْرًا"[1].

ويجوز أن يكونَ الأمْرُ أمْرَ إهانَةٍ وتوبيخٍ وتقريعٍ بأن يَذْهَبوا، ويَسيروا إلى ما كانوا يَجْحَدونَ بهِ، ويُنْكِرونَهُ مِن عذاب يوم القيامة[2].

وهذا الأمْرُ دالٌّ على شدَّة الغضَبِ؛ لأنَّه لمّا وصَلت أدلَّة السّاعة في الظُّهور إلى حدٍّ لا مزيد عليه، وحُكِم على المكذِّبين بالويل مرَّة، وأُكِّد بثلاث، فكان مِن حقّ المخاطَب أن يُؤْمِن، فلم يؤمن؛ فلذا قال تعالى مُعْلِمًا لهم بما يُقال لهم يوم القيامة؛ إذْ يحلُّ بهم الويلُ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾"[3].

هذا، وقد "جاء في العبارة فعلُ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ دون: اذهبوا، أو انصرِفوا؛ ليدلَّ هذا الفعلُ على أنَّ المكذِّبين يُكلَّفون يوم الدِّين - بعد مُحاسَبَتِهم وفَصْلِ القضاء بشأنِهم - أن يُسْرِعوا في الذَّهاب لدار العذابِ، وإلى نُزُلهم فيها ليَنالوا جزاءَهُم فيها جزاءً وفاقًا معادلًا لكُفْرِهم وجَرائِمِهم، وفي هذا التَّكليفِ حَزْمٌ لا تَساهُل معه ولا تهاوُن، فقد أُبرِم الأمرُ، وتمَّ بشأنهم الحُكم، فلْيُسرِعوا إلى منازلهم في الدَّركات، وإلى مستقرّاتهم في دارِ العَذابِ: جهنَّم وبئسَ القرارُ"[4].

نكتَةُ حَذْفِ فِعْلِ القول مِن ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾:

استِحضارُ المَوْقِف والحال، وتصوُّر اللهب والأغلالِ

الأمْرُ في قولِهِ سُبْحانَهُ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ "هو بتقديرِ القَوْلِ، أي: يُقال لَهُم توبيخًا وتقريعًا: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدُّنيا[5]، والظّاهر أنَّ القائِلين هم خزنَةُ النّار وزَبانيَةُ جهنَّم[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 434 - 435.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 80، ومجمَع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1733.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 176.
(4) عبد الرحمن ابن حسن، تفسير القرآن: 2/ 587.
(5) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 433.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 773، والقشيريُّ، لطائف الإشارات: 3/ 673، وأبو حفص النَّسفيُّ، التَّيسير: 15/ 169، والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 286.

وهذا الخطابُ صورَةٌ مُقْتَطَعَة ممّا سوف يوجَّه إليهم يوم الدِّين، حينما يُؤمَرون بالانطلاق إلى دركاتِهم في جهنَّم، وهو يَحْكي يومَ الحياةِ الدُّنيا ما سوف يخاطَبون به بعد حِسابِهم، وفصل القضاء بشأنهم، والحكم عليهم بالخلود في النّار؛ إذ منازلهم في أعماقها حتَّى الدَّرك الأسفل منها، وفنُّ الاقتطاع هذا مِن الأساليب القرآنيَّة البديعة التي تعتمد على عرْضِ صورةِ المَشْهَدِ، الذي سوف يكون مستقبلًا، كأنَّ الحدثَ واقع الآن؛ للإشعارِ فكريًّا بأنَّه سوف يتحقَّق حتمًا، ولإعطاء المشهَدِ صورةَ أمْرٍ واقعٍ الآن، ففي هذا مِن الإمتاع ما في المشاهدة الفعليَّة لدى وُقوع الحدث، فلقد فاجأ اللّه ﷻ المكذِّبين بالآخرة، فخاطبهم كأنَّهم الآنَ في يوم الدِّين[1]، وهذه نكتةُ حذفِ فعلِ القولِ وقائلِه.

مَعْنى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالَتُها:

سـاءَت جهنَّمُ غايَةً، وبِئْسَت مِن نهايَةٍ

الأصْلُ في معنى ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أنَّه موضوعٌ؛ للدَّلالة على انتهاءِ الغايَةِ[2]، وهو هُنا بهذا المَعْنى؛ إذ جَعَل النّار وما فيها مِن صنوف العذابِ غايةَ هذا الانطلاقِ المأمور بِه، وبئست الغايَةُ.

فهاهُم المكذِّبون "بيوم الفصل، بعد أنْ أصرّوا على موقفهم مِن التَّكذيب به، وبعد أن ضربوا صفحًا عن كلِّ ما قام بين أيديهم مِن شواهدَ، وما انْتَصَب لهم مِن أدلَّة على قدرة اللّه تَعالى التي لا يُعْجِزُها شيءٌ، فمَضَوا في طريق الكُفْر والضَّلال، حتَّى ضمَّتهم القبور، ثمَّ هاهُم أولاء يُبعثون مِن قبورهم، ويَتَلَفَّتون إلى أيِّ مساقٍ هُم مَسوقونَ إليه، وإذا صوتٌ مزلزِل يخترِقُ أصْماخَ آذانِهم، ويُلقي فيها بهذا

(1) عبد الرحمن ابن حسن، تفسير القرآن: 2/ 586.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 230، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 380، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 463، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 16.

الأمر الصّادع: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، أي: انطَلِقوا إلى موقِفِ الحِساب والجزاء، إلى ساحَةِ الفَصْل، فهذا يومُه الذي كنتُم به تُكَذِّبون، ثمَّ يتبع هذا الأمر بأمرٍ آخَرَ يكشِف لَهُم عَن وجْهِ المنطلَق الذي ينطلقون إليه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾"[1].

مَعْنى ﴿مَا﴾ ودِلالَتُها:

نـــوعٌ مِـــن الـــعـــذاب، يـحـارُ فيه أولـو الألـبـاب، ويخرُّ مِـن هَـوْلِـهِ كـلُّ مُخْبِتٍ أوّاب

يجوز أن تكون ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ موصولَةً بمعنى (الذي)، أي: انطَلِقوا إلى الذي كنتُم بهِ تكذِّبون، يعني: إلى عذاب النّار؛ لأنَّهم كذَّبوا بالبعث والنُّشور والنّار[2]، "وعُبِّر عنه بالموصولِ وصِلَتِهِ؛ لما تتضمَّنه الصِّلة مِن النِّداء على خَطَئِهِم وضَلالِهِم"[3].

ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ نكرةً موصوفَةً بمعنى (شيءٍ)، أي: "انطلقوا إلى عذابٍ كنتُم به تكذِّبون، فهذه جهنَّم التي يكذِّب بها الكافرون"[4]، والتَّنكير فيه للتَّعظيم.

ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريَّة[5]، وتكون ما دَخَلَتْ عَليهِ في تأويلِ مصدَرٍ، أي: انطلِقوا إلى تكذيبكم، أي: إلى جزاء تكذيبكُم.

نكتة التَّعبيرِ بفِعْلِ الكون ماضيًا ﴿كُنتُم﴾:

توطَّنت نُفوسُهُم على الـكُـفْـرانِ، فـاسْـتَـحـقّـوا العذابَ والهَوانَ

أفاد التَّعبير بالكون الماضي معنى الثُّبوت والاستقرار لِما دخلت عليه (كان) في الماضي، فيكون قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم﴾ بمعنى: "ما هو لكُم كالجِبِلَّة"[6]، ممّا يدلُّ على توطُّن نُفوسِهِم على التَّكذيب وإصرارِهِم عليهِ.

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1402.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 267، والشَّوكانيُّ، فتح القدير: 5/ 433.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 435.
(4) حجازيٌّ، التَّفسير الواضح: 3/ 806.
(5) محمَّد الهلال، الثَّريُّ الجامع: 12/ 236.
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 176.

معنى (الباء) ودلالَتُها في ﴿بِهِۦ﴾:

ألْصَقوا تكذيبَهُم بالوعيد، فاستحَقّوا العذابَ الشَّديد

الأصْلُ في معنى (الباء) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[1]، وهو في قوله تعالى: ﴿كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ يُفيدُ مَعْنى الإلصاقِ المجازيّ، ويوحي بأنَّ هؤلاء الكُفّار قد ألْصَقوا تكذيبَهُم بوعيدِ الله تعالى في كِتابِه، وعلى لسان رسوله ﷺ، فصار الأمرُ أنَّهم كلَّما أوعِدوا؛ كذَّبوا، وكلَّما أُنذِروا؛ كذَّبوا، فلا جرم يقال لَهُم يومَ القيامة: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

نُكْتَةُ تَقْديمِ شبه الجملة على المُسْنَد في ﴿كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾:

خَصّوا الوعيد بالتَّكذيب، فنالوا بِهِ غاية التَّعذيبِ

قُدِّم شِبْهُ الجملة على المسنَدِ في قوله تعالى: ﴿كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ لإفادَةِ التَّخصيص، أي: كنتُم به خصوصًا تكذِّبون، وكأنَّهم لم يكذِّبوا إلّا بما يُدْعَوْنَ الآنَ أن ينطلقوا إليه، وقَد كانوا به يَسْتَعْجِلون، فلذلك قال لَهُم مذكِّرًا بعباراتِ الوَعيدِ يَوْم كانوا في حياةِ الابتلاء: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، فالنّار، ووادي (ويل) فيها، ومعاقبتهم بالعذاب يوم الدِّين هو بعينه ما كانوا به يكذِّبون، هذا، وقد أفاد التَّقديمُ - مع التَّخصيص - رعايةَ الفاصلةِ.

نكتَةُ التَّعبير بالمسند الفعليّ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، ودلالَةُ مجيء فِعْلِهِ مُضارِعًا:

مَرَدوا على التَّكذيب، واستمرّوا، ففي قَعْرِ الجحيم استقرّوا

جيء بالمُسْنَد جملةً فعليَّةً فعلُها مضارع في قوله تعالى: ﴿كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ لإفادة تقوية الحكم وتوكيده، والسِّرُّ في إفادة التَّعبير بالمسند الفعليّ تقويةَ الحُكم، هو: تكرُّر الإسناد؛ لأنَّ الفعل ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ قد أُسنِد فيه مرَّتين؛ مرَّة إلى المسند إليه (التّاء في ﴿كُنتُم﴾)، ومرَّة إلى ضميره المتَّصل به (واو الجماعة)، العائد أيضًا على المسند إليه، فهو بمنزلة التَّعبير بجملة فعليَّةٍ مكرَّرة، فيَقْوى الحُكْمُ، ويَثْبُتُ في الذِّهن[2].

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 474، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 19.

(2) حسن عبد الرّازق، البلاغة الصّافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.

وتجري هذه الصِّياغة في المقاماتِ التي تدعو إلى التَّوكيد والتَّقرير، وهي كثيرةٌ لا تُحصَى[1]، ومنها هذا المقام الذي أريد فيه تأكيدُ تكذيب الكافرين في الدُّنيا لما يوعَدون به، فيكون تذكيرُهم بهذا ساعةَ رُؤْيَتِهم إيّاه بعينِ اليَقين نوعًا مِن التَّعذيب النَّفسيّ والرّوحيّ قبل التَّعذيب البدنيّ.

وقول الله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، معناهُ: "يقال للكُفّار: سيروا إلى ما كنتُم به تكذِّبون مِن العذاب، يعني: النّارَ، فقَد شاهَدْتُموها عيانًا"[2].

وأمّا التَّعبير عن فِعْلِ التَّكذيبِ بصيغة المضارعِ؛ فللدّلالةِ على تَجدُّد التَّكذيبِ وتَكراره[3]، أي: "﴿تُكَذِّبُونَ﴾، أي: في الدُّنيا مِن العذاب تكذيبًا هو مِن عِظَمِه بحيث يُعَدُّ غيره بالنِّسبة إليه عدمًا، وتجدِّدون ذلك التَّكذيب مستمرّين عليه"[4].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

خُيّروا في الدُّنيا، وأُجبِروا في الآخرة

قرأ رُوَيسٌ عن يعقوبَ: ﴿ٱنطَلَقُواْ﴾ بفتح اللّام - في الموضع الثاني من السورة فقط -، وقرأ باقي العشرةِ بكَسْرِها: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ﴾[5].

فأمّا قراءة رُوَيْسٍ - بفتح اللّام - فمِن (انطَلَقَ) فعلًا ماضيًا، على أنَّهُ خَبَرٌ، كأنَّهم لمّا أُمِروا بالأوَّل؛ امتثلوا؛ إذ الأمرُ هناك ممتَثَل قطعًا، وأمّا قراءة الباقين - بكسر اللّام - ؛ فمِن (انطلِقْ) أمرًا متكرّرًا بعدَ الأمر الأوَّل بالانطلاق؛ بيانًا للمُنْطَلَق إليه[6].

(1) محمَّد أبو موسى، خصائص التَّراكيب، ص: 220.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 162.
(3) محمَّد الهلال، الثَّريُّ الجامع: 12/ 236.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 176.
(5) ابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/ 397.
(6) البنّا، إتحاف فضلاء البشر، ص: 567.

والقراءتان متكاملتانِ مُتآزِرتان، "فكأنَّه قيل: كانوا يُؤمَرون في الدُّنيا بالإيمان والطّاعة، فلا يَلْتَفِتون إليه، ويُكَذِّبون مَن أمَرَ به، فلمّا أُمِروا في العُقبى بالانطلاقِ إلى ما كذَّبوا بهِ؛ سَمِعوا، وأطاعوا اضْطرارًا، فلو أطاعوا في الدُّنيا؛ لكان خيرًا لهم"[1].

علَّة فصْلِ قولِهِ تَعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ عن سابِقِهِ:

الفَصْلُ بينَ البَدَلِ وبينَ الاستئنافِ البَيانيِّ

يتفرَّع بيان علَّة الفصلِ بين الآيتَيْن عَلى اختلافِ القِراءَةِ لِهَذا الحَرْفِ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، فقراءة الجمهور - بكسر اللّام - على أنَّه أمرٌ، تكون تكرارًا للأمر الأوَّل[2]، وتكون "جملة: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ﴾ إلى آخرها بدلَ اشتمال أو مطابقًا مِن جملة: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾"[3]، فبين الجملتين كمالُ الاتِّصال، "وأُعيد فعل ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ على سبيل التَّوكيد؛ لقصد الزّيادة في تقريعهم وتوبيخِهم"[4].

وأمّا قراءة روَيْس عن يعقوبَ على صيغة المُضيِّ: ﴿ٱنطَلَقُوٓاْ﴾؛ فهو إخبارٌ، ويكون حينئذٍ "استئنافًا بيانيًّا جوابَ سؤالٍ مقدَّرٍ، بأنَّه: هل يُمْتَثَلُ الأمر؟ فأُجيب بأنَّهم امتثلوا الأمرَ اضطرارًا؛ ولذلك تُرِك العطف"[5].

أو كأنَّه قيل: فما كان حالُهم عندَ هذا الأمر الفَظيع؟ وما كان بَعْدَ الأمر؟ فقيل: ﴿ٱنطَلَقُوٓاْ﴾[6]، "أي: لمّا أُمِروا؛ امْتَثَلوا ذلك، وهذا موضِعُ الفاءِ، فكانَ يَنْبَغي أن يَكون التَّركيب (فانطلَقوا)، نحو قولك: قلتُ له: اذهب، فذهب"[7]، وإنَّما "تُرِكَت الفاءُ بناءً على أنَّ الكلامَ استئنافٌ لبيانِ امتثالهم كَرْهًا بَعْدَ ما يُقال لهم بلَفْظِ الأمر"[8].

(1) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 460.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 377.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 435.
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 238.
(5) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 520.
(6) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 8/ 297.
(7) ابن عادل، اللُّباب: 20/ 77، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 177.
(8) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 460.

وفي قراءة الجمهور تفصيلٌ بعد إجمالٍ؛ وذلك حيث "أُخْبِر عمّا يقال للمكذّبين في يوم الفصل، فقال: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، أي: يُقال لَهُم: انْطَلِقوا لِما كذَّبتم به مِن العذاب، ثمَّ بين ما أُجْمِلَ بقوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾"[1]، فوضَّح ذلك العذاب، وفصَّله.

نكتَةُ تَكْرارِ قولِهِ تَعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ﴾:

توكيدُ التَّقريع، وزيادَةُ التَّهويل والتَّشنيعِ

على قِراءَةِ الجُمْهورِ فإنَّ قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ الثّاني تكريرٌ للأوَّل لغرض التَّوكيد[2]، "ولقصد التَّوبيخ أو الإهانةِ والدَّفع، ولأجله أُعيد فعل ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ وحرف ﴿إِلَىٰ﴾، ومقتضى الظّاهر أن يقال: انْطَلِقوا إلى ما كنتُم به تكذّبون ظلٍّ ذي ثلاثِ شُعَبٍ، فإعادةُ العامل في البدَلِ للتَّأكيد في مقام التَّقريع"[3].

نكتَةُ تَسْميَة دُخانِ جهنَّم ظِلًّا:

تهكُّم واستهزاءٌ بالمكذِّبين الأشقياءِ

الظِّلُّ في لسان العربِ يُرادُ به: "حجابٌ عالٍ يَدْفَعُ أذى الحرّ عن الإنسانِ، فقوله: ﴿لَّا ظَلِيلٖ﴾، أي: لا يدفع الأذى، فهو في صورةِ ظلٍّ، وليس له معنى الظِّلّ"[4].

وفي تسميةِ النّارِ ظِلًّا "مجازٌ، مِن حيث إنَّها محيطةٌ بهم مِن كلِّ جانب؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٞۚ﴾ [الزُّمر: 16]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: 55]، ويجوز أن يكون المرادُ الظِّلَّ مِن يَحْمومٍ؛ لقوله تعالى: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحْمُومٖ ۝٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٖ ۝٤٤﴾ [الواقعة: 43 - 44]"[5].

(1) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 424.
(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 680، والنَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 587.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 435.
(4) السَّمعانيُّ، تفسير القرآن: 6/ 130.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 774، وابن عادل، اللُّباب: 20/ 78.

وأيًّا ما كانَ؛ فتسميَةُ ذلك ظلًّا "استعارةٌ تهكُّميَّة لتشبيهِ ما يعلو مِن الدُّخان بالظِّلِّ، وفيه إبداعٌ؛ لأنَّ الظِّلَّ لا يعلو ذا الظِّلِّ"(1).

"وفي دعوتهم إلى الانطلاق إلى ظلٍّ هو مِن دخان جهنَّم، لا إلى جهنَّم ذاتها، مع أنَّهم مدعوّون إليها أصلًا، في هذا استهزاءٌ بهم، وسخرية منهُم، ومبالغة في إيلامِهم؛ إذ يُلوَّح لهم بالظِّلِّ، الذي يفتَحُ لهم بابًا مِن الأمل، فإذا هذا الظِّلُّ لا يتمتَّع به إلّا مَن أخذ مقعده مِن النّار"(2)، "فعبَّر عنه بالظِّلِّ تهكُّمًا بهم؛ لأنَّهم يتشوَّقون ظلًّا يأوونَ إلى بَرْدِه"(3)، فلا يَجِدونَ إلّا جحيمًا، وعذابًا أليمًا.

نكتَةُ تنكيرِ ﴿ظِلٍّ﴾، ودلالةُ إفْرادِهِ، ووَصْفِهِ بـ ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾:

أمّا تنكير الظِّلِّ؛ فلإفادة التَّعظيم، ويدلُّ على هذا وصفُه بـ ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾، أي: يتشعَّب لعِظَمِه(4)، فهذا الوصفُ كنايَة عن كون ذلك الدُّخان عظيمًا، فإنَّ الدُّخان العظيمَ ينقَسِمُ إلى شُعَب كثيرة؛ بناءً على أنَّ التَّشعُّب مِن لوازمه(5)، "فلمّا كان عِظَم دخانِ جهنَّم مستلزِمًا لتشعُّبه؛ تَشَعَّبَ لا محالة"(6)، "فانقسم، وتفرَّق - لعِظَمِه وشدَّته - إلى ثلاثِ شُعَبٍ: شُعْبَةٍ وطائفَةٍ منهُ تكونُ مِن فوقهم، وأُخرى مِن تحتهم، وثالثةٍ تُحيط بهم مِن كلِّ جانب، وذلك كقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزُّمر: 16]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: 55]، أو شعبة على يمينِهم، وشعبة على يسارِهم، وشعبة ثالثة مِن فوقهم"(7)، "والمراد أنَّهم يَتَنَقَّلون مِن عذاب إلى آخَر، وأنَّ العذابَ محيطٌ بهم مِن كلِّ جانب"(8).

دخـانٌ عظيمٌ
يَـخْـبِـسُ
الأنـفـاس،
ويكوي بالنّار،
ويَرْمي بالشَّرارِ

(1) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 8/ 297.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1403 - 1404.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 435.
(4) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 276.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 774، والبروسويُّ، روح البيان: 10/ 286.
(6) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 461.
(7) مجمَع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1733.
(8) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 326.

وأمّا إفراده؛ "فلأنَّه جُعِلَ لهم ذلك الدُّخان في مكانٍ واحدٍ؛ ليكونوا متراصّين تحته؛ لأنَّ ذلك التَّراصَّ يزيدُهُم ألمًا"[1].

لطيفةُ كَوْنِ الشُّعَبِ ثلاثًا:

جـزاءٌ وِفـاقٌ بلا حَـيْـفٍ، حـقٌّ بلا زَيْفِ

الشُّعَب في قول الله تعالى: ﴿ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ "جمعُ شُعْبَةٍ: وهي الفريق مِن الشَّيء والطّائفة منه، أي: ذي ثلاث طوائفَ، وأُريدَ بها طوائفُ مِن الدُّخان، فإنَّ النّار إذا عَظُم اشتعالُها؛ تصاعدَ دخانُها مِن طَرَفَيْها ووَسَطِها لشدَّة انْضِغاطِهِ في خُروجِه منها، فوصف الدُّخان بأنَّه ذو ثلاثِ شُعَب؛ لأنَّه يكون كذلك يوم القيامة"[2]، "وإنَّما سُمِّيت شعبةً؛ لأنَّ أصلها مِن مصدر واحدٍ، هو النّار"[3].

وأمّا خصوصيَّة الشُّعب الثَّلاث؛ فلأنَّ تكذيب المكذِّبين كانَ باللّه تَعالى وكُتُبه ورُسُله، فتُعَذِّبهم كلُّ واحدة منها عذابًا يَعْلَمون هناك لأيِّ تكذيبةٍ مِنْها هيَ، أو لأنَّ الحاجبَ عن أنوار القُدسِ: الحِسُّ والخيال والوهْمُ، أو لأنَّ السَّبب فيه: القوَّة الوهميَّة الحالَّة في الدِّماغ، والغضبيَّة التي في عين القلب، والشَّهويَّة التي في يساره[4]؛ "ولذلك قيل: تقفُ شعبةٌ فوقَ الكافرِ وشعبةٌ عن يمينِه وشعبة عن يساره"[5].

ويحتمل أن تكون الخصوصيَّة؛ لتضييعهم القوى الثَّلاث التي هي السَّمع والبصر والفؤاد، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك: 23]، فشكرُها ورعايتُها مبدأ السَّعادات، وإتلافها وعدَمُ حفظِها منشأ الشَّقاوات[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 435.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 435 - 436.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1403.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 774، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 177.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 80.
(6) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 287.

أو لأنَّ الطُّرق المؤدِّية لهذه الشُّعب الثَّلاث ثلاثة، "أحدها: تكذيب الرُّسل صريحًا، وثانيها: تكذيبهم اقتضاءً، وثالثها: ارتكاب المعاصي"[1]، "وقال ابن عبّاس: هذه المخاطَبة تقال يومئذٍ لِعَبَدَةِ الصَّليب؛ إذا اتَّبَعَ كُلُّ أحد ما كان يعبد، فيكون المؤمنون في ظِلِّ اللّه، ولا ظِلَّ إلّا ظِلُّه، ويقال لعَبَدَةِ الصَّليب: انطلقوا إلى ظِلِّ معبودكم، وهو الصَّليب له ثلاثُ شُعَبٍ"[2].

وهذه لطائفُ ومناسباتٌ لا يُمْكِنُ الجَزْمُ بشيءٍ مِنْها إلّا إذا وردَ عمَّن قولُهُ حجَّةٌ.

علَّة فصْلِ قولِهِ تَعالى: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ عن سابقِه:

﴿لَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ نافية، و﴿ظَلِيلٍ﴾ نعت لـ ﴿ظِلٍّ﴾ منفيٌّ مجرور[3]، أي: "لا يظلُّكم مِن حَرِّ هذا اليوم؛ بل يُدْنيكُم مِن لهب النّار إلى ما هو أشدُّ عليكم مِن حَرّ الشَّمس، ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ عنكم ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾، أي: لا يدفع عنكم مِن حَرّه شيئًا، كما يدفع الظِلُّ الحرَّ"[4]، وشأن الصِّفةِ ألّا يُفْصَلَ عن مَوْصوفِها بواوٍ، ولذا تعيَّن حذفُ الواوِ.

نُـعِـت الـظِّـلُّ بما يُجرِّده مِن صفاتِ الظِّلال، ويَجْعَلُهُ كأنَّه لَمْعُ آل

نكتَةُ توجيهِ النَّفي للمُبالغَةِ ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾:

﴿ظَلِيلٍ﴾ جاءَت على زِنَةِ (فعيل)، وهي مِن أوْزانِ المُبالغَةِ، ونفيُ كونِهِ ظَليلًا يدلُّ على نفي ما تقَعُ عليهِ المُبالغَةُ، وهي تقَعُ على الدَّوام، وتقَعُ على ما هو المقصود بالظِّلّ، وهو سَتْرُ الحَرارَةِ وحَجْبُها.

المرادُ المُبالغَة في النَّفي، لا نفي المُبالغَةِ

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ هَذا مِن قبيلِ المُبالغَةِ في النَّفي؛ "لأنَّ نَفْيَ المُبالغَةِ يَرِدُ كثيرًا في كلام العَرَبِ مُرادًا منهُ المُبالغَةُ في النَّفي"[5]، وعليه يكون قوله تعالى: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾، "أي: مِن الحَرّ بوجهٍ مِن الوجوه"[6].

(1) ثناء الله المظهريُّ، التَّفسير المظهريُّ: 10/ 168.
(2) الثَّعالبيُّ، الجواهر الحسان: 5/ 539.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 339، ومحمود صافي، الجدول: 15/ 204.
(4) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 95.
(5) الدُّسوقيُّ، حاشية على مختصر المعاني: 3/ 375.
(6) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 178.

بلاغَةُ الإدماج في قولِه: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾:

وصـــفٌ أزال التَّوهُّم، لَكِنْ عَـــن طـريـقِ التَّهكُّم

في وصْفِ الظِّلِّ بأنَّه ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ إدماجٌ بديعٌ؛ إذ "أَدْمَجَ في معنى ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ معنيَيْنِ، أحدهما: التَّهكُّم بهم؛ لأنَّ مفهومَ الظِّلِّ للاسترواحِ، وهاهُنا عكسُه، كما في قوله: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ [الواقعة: 43 - 44]. وثانيهما: تعريضٌ بأنَّ للمُؤْمِنين ظِلًّا على خلافِه؛ ليَزيدَ في تَحسُّرهم"[1].

بلاغَةُ جناسِ الاشْتِقاقِ بين ﴿ظِلِّ﴾ و﴿ظَلِيلٍ﴾:

اكْـتِـسـاءُ جَـلالِ المَـبْـنـى بـبـهـاءِ المَعْنى

لفظُ الظَّليل في قول الله تعالى: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ يُرادُ به: "القويُّ في ظِلاله، اشتُقَّ له وصفٌ مِن اسمه؛ لإفادة كماله فيما يُراد منه، مثل: ليلٌ أليل، وشِعْرٌ شاعر، أي: ليس هو مثل ظلِّ المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾ [النِّساء: 57]، وفي هذا تحسيرٌ لَهُم، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ [الواقعة: 43 - 44]"[2].

ووصفُ الظِّلِّ بـ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ - وهو مأخوذٌ من لفظ الظِّلِّ - لإرادةِ التَّوكيدِ، "كنوم نائم، أي: لا يُظِلُّ مِن الحَرِّ، وتوصيف الظِّلِّ بأنَّه لا يُظِلُّ مِن حَرِّ ذلك اليوم، وهو حَرُّ النّار؛ للدَّلالة على أنَّ تسميةَ ما يغشاهم مِن العذاب بالظِّلِّ استهزاءٌ بهم، فإنَّ شأن الظِّلِّ أن يَدْفَعَ عمَّن يستظلُّ به مقاساة شدَّة الحَرِّ، وأنَّه ينفعُه ببَرْدِه ونَسيمِه، والذي أُمِروا بالانطلاق إليه يضاعِفُ عليهم ما هُم فيه مِن الحَرِّ والعذاب فضلًا عن أن يستريحوا ببَرْدِه"[3].

وهذا الجناسُ قَد أَحْدَثَ - مع ما تقدَّم - وقعًا في الأذُن يجذِب انتباهَها، ويسترعي سمعَها.

(1) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 16/ 230.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 436.
(3) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 287.

نكتةُ عطف ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ على سابقه:

دفـعُ تـوهُّـمِ وُجـود شيءٍ مِن الـبَرْد في لفظِ الظِّلّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِي﴾ عاطفة، و(لا): نافية لا عملَ لَها، وجملة ﴿وَلَا يُغۡنِي﴾ في محلِّ جرٍّ صفةٌ ثانيةٌ لـ ﴿ظِلٍّ﴾[1].

وقد جيء بالصِّفة الأولى ﴿لَّا ظَلِيلٖ﴾ اسمًا، وبالثّانية ﴿وَلَا يُغۡنِي﴾ فعلًا؛ دلالةً على نفي ثبوت هذه الصِّفةِ واستقرارها للظِّلّ، ونفي التَّجدُّد والحدوث للإغناء عن اللهب[2]، فإنَّهُ لمّا "كان ما انتفى عنه غزارة الظِّلّ التي أفهمَتْها صيغةُ المبالغةِ قد يكونُ فيه نفعٌ ما؛ قال: ﴿وَلَا يُغۡنِي﴾، أي: شيئًا مِن إغناءٍ ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾، أي: هذا الجنس"[3]، والمرادُ "أنَّهم إذا استظلّوا بذلك الظِّلّ؛ لم يَدْفَعْ عنهُم حَرَّ اللهب"[4].

وبمجموعِ هذه الأوصافِ "يكون لفظُ الظِّلّ، قد فقَدَ خصائصَه المعروفة مِن البرودة والشُّعور عنده بالرّاحة، وصار المقصودُ به ظِلًّا آخر، لا بَرْدَ فيه، ولا يَدْفَعُ عنهم شيئًا مِن حَرّ اللهب، وهذه الصِّفات إنَّما جيء بها لدَفْعِ ما يوهِمُه لفظُ ﴿ظِلٍّ﴾"[5].

نكتةُ تَكْرار (لا)، ودلالةُ التَّعبير بالمُضارعِ المَنْفيّ:

كُرِّرت (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ لتوكيد النَّفي[6]، وسُلِّطَ هذا النَّفيُ على المضارع؛ لتعميمِه على الدَّوام، في الحال والاستقبال، أي: إنَّ هذا الظِّلَّ "غيرُ مُفيدٍ في وقت مِن الأوقات مِن حَرّ اللهب شيئًا"[7].

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصَّل: 12/ 300.
(2) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 10/ 638، وابن عادل، اللُّباب: 20/ 78.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 178.
(4) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 306.
(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 239.
(6) محمَّد الهلال، الثَّريُّ الجامع: 12/ 237.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 194.

نكتَةُ حذفِ معمولِ الفعل ﴿يُغْنِي﴾:

حذفٌ للتَّعميم؛ بيانًا للغَبْنِ العظيم

حُذِفَ مفعولُ ﴿يُغْنِي﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾، والتَّقدير: لا يُغني شيئًا، و﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ بيانيَّةٌ[1]، أي: إنَّ هذا الظِّلَّ "غيرُ مُغْنٍ لهم مِن حَرِّ اللهبِ شيئًا"[2]، فالحذفُ يُرادُ به التَّعميم؛ لأنَّ حذفَ المتعلِّق يُفيدُ ذلكَ.

نكتَةُ التَّعبير عن الدَّفع بالإغْناءِ في قولِهِ: ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾:

تَضْمينُ الإغْناءِ مَعْنى الدَّفع، فلَيْسَ في ظلِّ جَهنَّم أيُّ نَفْعٍ

حقيقةُ الإغناء: جعلُ غيرِكَ غنيًّا، أي: ليسَت له حاجَةٌ في ذلك الغرَضِ، وقد عُدّيَ بحرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾ على معنى البدليَّة، أو لكونِهِ ضُمِّنَ معنى الفِعْلِ: يُبْعِد[3]؛ "لأنَّ الغنيَّ عن الشَّيء يباعده، كما أنَّ المحتاج إليه يقرّبه، فصَحَّ أن يعبَّر بإغناء شيء عن شيء عن إبعادِهِ عنه، فكان المَعْنى أنَّ هذا الظِّلَّ لا يُظِلُّكم مِن حَرِّ الشَّمس، ولا يدفع عنكم لهب النّار"[4]، "وبذلك سُلِبَ عن هذا الظِّلِّ خصائصُ الظِّلال؛ لأنَّ شأن الظِّلِّ أن يُنفِّس عن الذي يأوي إليه ألمَ الحَرِّ"[5].

معنى ﴿مِنَ﴾ والتَّعريفِ، ودلالَتُهُما في ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾:

لا شيءَ يدفَعُ لهبَ النّار، ولا يطفئ تغيُّظَها على الكُفّار

الأصْلُ في معنى (مِن) أنَّها موضوعَةٌ للدَّلالة على ابتداءِ الغاية[6]، وهي بهذا المَعْنى في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾، "وإنَّما عُدّي في الآية بـ ﴿مِنَ﴾؛ لأنَّه أراد أنَّ ابتداء الإغناء منه"[7]، وإذا كان هذا الإغناءُ منفيًّا؛ فقد دلَّ على أنَّ هذا اللهب لا دافِعَ له. أمّا تعريف اللهب؛ فللعهد العِلْميِّ، أي: لهب جهنَّم المذكور ظِلُّ دخانِها المتشعِّب ثلاثَ شُعب.

---

(1) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 287، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 8/ 457.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 81.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 436.
(4) البروسويُّ، روح البيان: 10/ 287.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 436.
(6) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 459، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 75.
(7) النَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 6/ 424.

سرُّ إيثار التَّعبير بـ ﴿ٱللَّهَبِ﴾ دون غيره:

اللهب على النّار دليلُ شدَّة الاشتِعارِ

أصلُ اللهبِ: ارتفاعُ لسانِ النّار، واللهب أيضًا: اضطرام النّار، واللهيب: ما يبدو مِن اشتعالها[1]، واللهب كذلك: "ما يعلو على النّار؛ إذا اضْطَرَمَت مِن أحمرَ وأصفرَ وأخضَرَ"[2].

وهذا الوصف يدلُّ على شدَّة اشتعال النّار، فإنَّ النّار الضَّعيفة لا لهَبَ لها، فهُم في هذا الموقف يَنْظُرون، فيرون جهنَّم قد أُتي بها ولها يومئذٍ: «سبعون ألف زمام، مع كلِّ زمام سبعون ألف مَلَك يجرّونها»[3]، فإذا ﴿رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان: 12]، فكيف إذا أُلقوا فيها؟.

علَّة الفَصْلِ:

فَصْلٌ لأجل التَّعليل؛ لعَدَمِ غناء الظِّلِّ غير الظَّليل

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾؛ لأنَّه استئناف بيانيٌّ[4]؛ إذ هو "بمنزلة التَّعليل لعدم غناء الظِّلِّ غير الظليل"[5].

فكأنَّ سائلًا سأل عن سبب عدم إغناء ظِلِّ النّار، فأُجيب بما يفسّر هذا السَّببَ، وهو "أنَّ هذه النّار يتطايَرُ منها شررٌ متفرّق في جهاتٍ كثيرة، كأنَّه القَصْر عِظَمًا وارتفاعًا، وكأنَّه الجِمال الصُّفر لونًا وكثرةً وتَتابُعًا وسُرعةَ حركةٍ"[6]، فكيف يكون لها ظلٌّ يُغني مِن لهيبها؟.

نكتَةُ تصدير الجملة بـ ﴿إِنَّهَا﴾، وبيانُ مَرْجِعِ الضَّمير:

أصبَحَ الوعيدُ بجَهَنَّم حقيقةً تملأُ سَمْعَ المكذِّبين وأبصارَهُم

الضَّمير في ﴿إِنَّهَا﴾ يعودُ إلى نارِ جهنَّمَ المستفادَةِ من قول الله تعالى: ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، "كما يُقال للذي يُساقُ إلى القَتْلِ - وقد رأى رجلًا بيَدِهِ سَيفٌ فاضطرب لرؤيته، فيُقال له: إنَّه الجلّاد.

(1) ابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (لهب).
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 163.
(3) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (2842).
(4) محمود صافي، الجدول: 15/ 204.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 339.
(6) المراغيُّ، تفسير المراغي: 29/ 186.

وإجراءُ تلك الأوصافِ في الإخبار عنها لزيادة التَّرويع والتَّهويل، فإنْ كانوا يرَوْن ذلك الشَّرر لقُربهم منه؛ فوصفُهُ لَهُم لتأكيدِ التَّرويع والتَّهويل بتظاهُرِ السَّمع مع الرُّؤية، وإنْ كانوا على بُعدٍ منهُ؛ فالوصف للكَشْفِ عن حالهِ الفظيعة.

وتأكيد الخبر بـ (إنَّ) للاهتِمام بهِ؛ لأنَّهم حينئذٍ لا يشكّون في ذلكَ، سواءٌ رأوه، أو أُخبِروا به"[1].

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليّ ﴿تَرْمِى﴾، ودلالةُ مجيء فِعْلِه مُضارعًا:

إفادَةُ التَّوكيد، والدَّلالةُ على الاستمرارِ والتَّجديد

عُبِّر بالمسند الفعليّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى﴾؛ لإفادة تقوية الحُكْم وتوكيدِه عن طريق تكرُّر الإسناد؛ إذ إنَّ الفعل ﴿تَرْمِى﴾ قد أُسنِد مرَّتين؛ مرَّة إلى الضَّميرِ في ﴿إِنَّهَا﴾، ومرَّة إلى ضميره المستتر في ﴿تَرْمِى﴾ العائد أيضًا على ما عاد إليه الضَّميرُ في ﴿إِنَّهَا﴾، فهو بمنزلة التَّعبير بجملة فعليَّة مكرَّرة، فيقوى الحُكْمُ ويَثْبُتُ في الذِّهن[2].

وأمّا معنى المُضارعيَّة فيه؛ فلإفادة تجدُّد الحدَث واستمراره، "فصار ذلك تنبيهًا على أنَّه لا يزال يَسْقُطُ عليه مِن الهواءِ شراراتٌ كالقُصور"[3]، وأنَّ هذه النّارَ متَّقِدة أبدًا لا تَخْبو.

دلالَةُ التَّعبير بالرَّمي، ونكتَةُ حذفِ مَعْمولِهِ في ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾:

شنَّت النّارُ حربَها على الكافرين، فرَمَتْهُم بقَذائِفِ الشَّرر العظيمِ

يدلُّ الرَّمي على النَّبذ والإلقاء[4]، والتَّعبير عن تطاير الشَّرر مِن النّار بالرَّمي فيه دلالة على شدَّة استعارِها واضْطِرامِها[5]، حتَّى صارَ ذلك يتطايَرُ كالقذائف المدمِّرة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 437.
(2) حسن عبد الرّازق، البلاغة الصّافية، ص: 125، وحسن طبل، علم المعاني، ص: 125.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 777.
(4) الجوهريُّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (رمي).
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 178.

معنى (الباء) والتَّنكيرِ، ودلالَتُهُما في ﴿بِشَرَرٍ﴾:

مِـــن عـظـمـة شَرَرِها؛ تُعرَف عظمَةُ جَمْرِها

الأصل في (الباء) أنَّها موضوعَةٌ للدَّلالة على الإلصاق حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[1]، وهو في قوله تعالى: ﴿بِشَرَرٍ﴾ دالٌّ على معنى الإلصاق هذا، فكأنَّ قذائف جهنَّم قد التَصَقَت بهذا الشَّرر ممّا يوحي بقصديَّتها إصابةَ الكافرين المكذِّبين به، ولا يَبْعُد هذا، وقد أثبت الله تَعالى للنّارِ الرُّؤيةَ، والكلامَ، والشَّهيقَ، والغَيْظَ.

وأمّا الشَّرر؛ "فهو ما تطايرَ مِن النّار، سُمِّي بذلك لاعتقاد الشَّرِّ فيه"[2]، وهو "اسمُ جنسٍ جمعيٌّ، واحدُه: شررة، وهو مؤوَّل هنا، أي: كلُّ واحدةٍ منه كالقَصْر"[3]، فالتَّنكير فيه للتَّعظيم والتَّفخيم.

"وإذا كانت الشَّررةُ مثلَ القَصْرِ الضَّخم أو الحِصْنِ العالي العظيم، أو كأُصول الشَّجر العِظام، فكيف يكون حالُ النّار التي تَرْمي بذلكَ؟ أعاذنا الله منها"[4].

بلاغَةُ التَّشبيهِ في قولِهِ تَعالى: ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾:

تشبيهٌ بفَرْطِ الضَّخامة والعِظَم، فيا ويلَ المكذِّبين مِن الأُمَم

في قوله تَعالى: ﴿بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ تشبيه مرسَل مُجمَل؛ إذ شبَّه الشَّرر المتطاير مِن النّار بالقَصْرِ في مقاديره[5]، "وإنَّ في التَّشبيه بالقَصْرِ – وهو الحِصن – تشبيهًا مِن جهتين، مِن جهة العِظَم، ومِن جهة الطّول في الهواءِ"[6].

وفي هذا التَّشبيهِ "إشارَةٌ إلى ضَخامَةِ حَريقِها الذي لا تَبْلُغ جبال الدُّنيا مجتمعَةً بعضًا مِن ضخامته"[7]، وهوَ مِنْ بدائعِ التَّشبيهات

(1) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزَّمخشريُّ، المفصَّل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 474، والسّامرّائيُّ، معاني النَّحو: 3/ 19.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 194.
(3) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 8/ 297.
(4) مجمَع البحوث، التَّفسير الوسيط: 10/ 1734.
(5) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 164.
(6) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 681.
(7) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1404.

القرآنيَّةِ؛ لأنَّ الشَّرارة إذا كانت مثلَ القَصْرِ الضَّخم، فكيف تكون حال تلك النّارِ الملتهبة؟.

معنى التَّعريفِ ودلالتُه في ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾، ودلالة الإفرادِ فيه:

كلُّ شررة كقَصْرٍ مَشيد، ومصيرُ المكذِّبين فيها هو الخلودُ

القصْرُ في قول الله تعالى: ﴿بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ هوَ البناء العالي المرتفِعُ، و(الـ) فيه للجنس، "أي: كالقُصور؛ لأنَّه شُبِّه به جَمْعٌ، وهذا التَّعريف مثل تعريف (الكتاب)، في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: 25]، أي: الكُتُب، وعن ابن عبّاس: الكتاب أكثر من الكُتُب، أي: كلُّ شررةٍ كقصرٍ، وهذا تشبيهٌ في عِظَم حَجْمِه"[1].

وكان في هذا الإفرادِ رعايةٌ للفاصلة، فهو أنسَبُ للفاصِلَةِ بعدها ممّا لو قيل: (كالقصور).

بلاغَةُ التَّشبيهِ في قولِهِ تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾:

براعَةٌ في البَيانِ، وتخويفٌ مِن شَرَرِ النِّيرانِ

الجِمالَةُ: اسمُ جمعٍ لطائفةٍ من الجمالِ، وجمعُها: جمالاتٌ، ومعنى ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾، أي: "تُشْبِه طوائفَ مِن الجِمال متوزّعة فِرَقًا، وهذا تشبيه مركَّب؛ لأنَّه تشبيه في هيئة الحَجْم، مع لونِه مَعَ حركَتِه"[2]، فقد شُبِّهت بالجمالات لسُرْعَةِ سَيْرِها، أو لمتابعة بعضِها بعضًا[3].

وفي هذا "تنبيهٌ على أنَّ في كلِّ واحدٍ مِن تلك الشَّرارات أنواعًا مِن البلاء والمحنة، فكأنَّه قيل: تلك الشَّرارات كالجمالات الموقَّرة بأنواعِ المِحْنَة والبلاء"[4].

وعلى تأويل الجِمالات بالقُلوس العظيمة التي تكون للسُّفن، يكون "التَّشبيه مِن ثلاث جهات: مِن جهة العِظَم، والطّول، والصُّفرة"[5].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 437.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 437.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 165.
(4) الجاويُّ، مراح لبيد: 2/ 593.
(5) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 4/ 681.

بيانُ مَرْجِعِ الضَّمير في ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ ودلالتُه:

تصويرٌ عجيب، وتخييلٌ غريب

ضمير الهاءِ "في ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ راجع إلى الشَّرر باعتبار اللَّفظ، أي: شُبِّهت الشَّرر بالقصور، ثمَّ شُبِّهت بالجمال؛ ليبيِّن أنَّ المراد مِن التَّشبيه الأوَّل هو العِظَم مع اللَّون، فالجمال والقَصْرُ سيّان باعتبار العِظَم، ثمَّ ضُمَّ معه ﴿صُفْرٌ﴾، فيكون التَّشبيه الثّاني مع الأوَّل، كبَدَل الاشتمال في نحو: أعجبني زيدٌ كرمُه"[1].

وهذا يَذْهَبُ بالمعنى "إلى تصويرٍ عجيب وتخييل غريب؛ شُبِّهت الشَّرارةُ حين تنقضُّ مِن النّار في عِظَمها بالقَصْر، ثمَّ شُبِّه القَصْرُ المشبَّه به حينَ يأخُذ في الارتفاع والانبساط، فإنَّه حينئذٍ ينشقُّ عن أعدادٍ لا نهاية لها، بالجمالات المتكاثرة، فيُتصوَّر منها حينئذٍ العِظَمُ أوَّلًا، والاتّساقُ معَ الكثرة والصُّفرة والحركة المخصوصة ثانيًا، فيبلغ التَّشبيهُ إلى الذِّروة العُليا"[2].

سرُّ المغايرة في التَّشبيه بين (الكاف) في ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾، و(كأنَّ) في ﴿كَأَنَّهُۥ﴾:

تأكيدُ التَّشبيه، وتكريرُ التَّنبيهِ

(كأنَّ) آكَدُ من (الكاف) في باب التَّشبيه، فقولُ القائلِ: زيد كأنَّه الأسد، أبلغ وآكَدُ مِن قولِه: زيد كالأسد[3]؛ وذلك راجع إلى معنى (كأنَّ)، "ومذهب الخليلِ، وسيبويه، والأخفش، وجمهور البصريّين، والفرّاء: أنَّها مركَّبة مِن كاف التَّشبيه و(إنَّ)، فأصل الكلام عندهم: إنَّ زيدًا كالأسد، ثمَّ قدَّموا الكافَ اهتمامًا بالتَّشبيه، ففُتِحت (إنَّ)؛ لأنَّ المكسورة لا يدخل عليها حرفُ الجرّ"[4].

والفرق بين الأصل والفرع في (كَأنَّ) هو أنَّ "التَّشبيهَ في الفرع أقعدُ منه في الأصل، وذلك إذا قلتَ: زيدٌ كالأسد، فقد بَنَيْتَ كلامَك على اليقين، ثمَّ طَرأ التَّشبيهُ بعدُ، فسَرَى مِن الآخِر إلى الأوَّل، وليس

(1) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 16/ 231.
(2) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 16/ 233.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 330.
(4) المراديُّ، الجنى الدّاني، ص: 568.

كذلك في الفَرْعِ الذي هو قولُكَ: كأنَّ زيدًا أسدٌ؛ لأنَّك بَنَيْتَ كلامَك مِن أوَّله على التَّشبيه"[1].

وقد اختير في التَّشبيه الأوَّل (الكاف) لأصالَتِها، "ولمّا أُريد به التَّنبيهُ على استقلال التَّشبيه الثّاني؛ عُدِلَ عنه إلى لفظِ ﴿كَأَنَّهُۥ﴾"[2].

بلاغَةُ توالي تَشْبيهَيْن لمُشَبَّه واحِدٍ:

تقويةُ إثباتِ الوَصْفِ للمُشبَّه، وتأكيدُ شَرَفِه

في قوله تعالى: ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ تشبيه مرسَل مجمَل لحذف وجه الشَّبهِ، وفي قوله جلَّ ذكرُه: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ تشبيه مرسَل مفصَّل لذِكر وجه الشَّبه وهو اللَّون[3]، والمشبَّه واحدٌ فيهما، وهو الشَّرر المتطاير مِن النّار.

وحاصل التَّشبيهيْن أنَّه "شُبِّه الشَّررُ في العِظَم بالقصر، وفي اللَّون والكثرةِ والتَّتابع وسرعة الحركةِ؛ بالجِمالات الصُّفر، وقيل أيضًا: إنَّ ابتداء الشَّرر يعظُم فيكون كالقَصْر، ثمَّ يَفْتَرِقُ فتكون تلك القِطَعُ المتفرّقة المتتابعة كالجِمالات الصُّفر"[4].

والمرادُ بالتَّشبيه الأوَّل في قوله: ﴿كَٱلْقَصْرِ﴾ بيانُ أنَّ تلك النّار عظيمة جدًّا، والمرادُ بالتَّشبيه الثّاني في قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ "شدَّة اشتعالها، والتَّهكُّم بهم، كأنَّه قيل: كنتُم تتوقَّعون مِن وثنيَّتكم كرامَةً ونِعمةً وجمالًا، إلّا أنَّ تلك الجِمال هو هذه الشَّرارات التي هي كالجِمال"[5].

فقد شبَّهَ اللّه تَعالى "الشَّرر الذي يَنْفَصِلُ عن النّار في عظمته وضخامته بالقَصْر، وهو البناءُ العالي المُرْتَفِع، وشبَّهه أيضًا حين يأخُذُ في الارتفاع والتَّفرُّق بالجِمال الصُّفر في هَيْئَتِها ولَوْنِها وسرعة

(1) ابن يعيش، شرح المفصَّل: 4/ 564.
(2) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 523.
(3) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 324، والدُّرَّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 10/ 385.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 775.
(5) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 29/ 327.

حركتها وتزاحُمها، والمقصود بهذا التَّشبيه: زيادةُ التَّرويع والتَّهويل، فإنَّ هؤلاء الكافرين لمّا كذَّبوا بالحساب والجزاء؛ وصَفَ الله تعالى لهم نارَ الآخرة بتلك الصِّفات المرعبة، لعلَّهم يُقْلِعون عن شِرْكِهم، لا سيَّما وأنَّهم يرَوْن النّار في دنياهم، ويرَوْن شَرَرَها حين يتطاير، وإنْ كان الفرق شاسعًا بين نار الدُّنيا ونار الآخرة، وزيادةً في التَّخويفِ والإنذار؛ خُتِمت هذه الآيات أيضًا بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾"[1].

والتَّشبيهُ بالشَّيئَيْن في إثباتِ وصْفَيْن أقوى في ثبوتِ ذَيْنِكَ الوصفيْن مِن التَّشبيه بالشَّيء الواحد في إثبات ذيْنِكَ الوَصْفيْن، وبيانُ ذلك أنَّ مَن سمع قولَه: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ تَسارَع ذهنُه إلى أنَّ المرادَ إثباتُ عِظَم تلك الشَّرارات، ثمَّ إذا سَمِعَ بعد ذلك قوله: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ تَسارَع ذهنُه إلى أنَّ المراد كثرةُ تلك الشَّرارات وتتابُعها ولونُها، فـ "التَّشبيهُ بالقَصْرِ وبالجمالات الصُّفر، كالبيانِ المفصَّل المكرَّر المؤكَّد، ولمّا كان المقصودُ مِن هذا البيان هو التَّهويل والتَّخويف، فكلَّما كان بيانُ وجوهِ العذاب أتمَّ وأبينَ؛ كان الخوف أشدَّ، فثبت أنَّ هذا التَّشبيه أتمُّ"[2].

فالحاصل أنَّه "شبَّه الشَّرر حين ينفصِل مِن النّار في عِظَمِه بالقَصْر، وحين يأخُذ في الارتفاع والانبساطِ لانشقاقه عن أعدادٍ غيرِ محصورة بالجِمال؛ لِتَصَوُّرِ الانشقاق والكثرةِ والصُّفرة والحركَةِ المَخْصوصَة، وقد روعيَ التَّرتيبُ في التَّشبيه رعايةً لتَرْتيبِ الوجود"[3]، "وتُرِكَ العطف تنبيهًا على استقلال كلٍّ مِن التَّشبيهيْن على حيالِه، وتغييرُ أداة التَّشبيه له مدخَلٌ في ترك العطف"[4].

نكتة تنكير ﴿جِمَٰلَتٌ﴾، ودلالة جَمْعِها ووَصْفِها بـ ﴿صُفْرٌ﴾:

الجِمالات جَمْعُ: جِمالة، وهي اسمٌ لطائفَةٍ مِن الجِمال، وواحِدُ الجِمالةِ: جَمَلٌ، "وهو الحيوان المعروف، وفي جمع الجَمل على (جمالات) إشارةٌ إلى أنَّها مِن الجمال المتخيَّرة مِن بين الجِمال ضخامةً وامتلاءً، مثل: (رِجالات) التي هي جمع لـ (رِجال) ذوي صفات متميّزة"[5].

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 15/ 240.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/ 776.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 195.
(4) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 19/ 523.
(5) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1404.

فأمّا الجمع؛ "فللدَّلالة – مع كِبَره – على كثرتهِ وتتابُعه واختلاطِه وسُرعة حركتِه"[1]، وأمّا التَّنوين فيه؛ فلتأكيدِ مَعْنى التَّكثير[2].

تعظيمٌ وتكثيرٌ لـشَـرَرِ جهنَّـم المُستَطيرِ

"فهذا الشَّرر ينطلق بعضُه إثرَ بعضٍ في تتابُعٍ كأنَّه قُطْعان مِن الجمال الصُّفراء، ينطلق بعضها إثرَ بعض، فالويل للمكذِّبين، مِن هذا البلاء المحيط بهم، ومِن هذه النّار التي ترمي بهذا الشَّرر العظيم"[3].

وأمّا وصْفُها بـ ﴿صُفْرٌ﴾؛ فمعناهُ: "سودُ الإبل، لا ترى أسوَدَ مِن الإبل إلّا وهو مُشرَب بصُفرة؛ فلذلك سَمَّت العربُ سودَ الإبل: صُفْرًا، كما سَمَّوا الظِّباء: أُدْمًا؛ لِما يَعْلوها مِن الظُّلمة في بياضها"[4]، وهذا بيانٌ لسَواد الشَّرر المتطايرِ مِن النّار التي أوقِد عليها حتَّى اسودَّت، فهي سوداء مُظلِمة كاللَّيل البهيم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الظِّلُّ والفَيْء:

الـظِّـلُ أعَـمُّ من الفَيْء

(ظل) أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على سَترِ شيءٍ لآخَرَ، وهو الذي يُسَمَّى الظِّل، فمعنى الظِّل: السَّتر[5]، والظِّل: ظِلُّ الإنسان وغيره، والظِّلُّ يكون بالغداة والعشيّ، ومن أوَّل النَّهار إلى آخره[6].

ويقال: أظلَّتْني الشَّجرة، واللَّيلُ: ظِلٌّ[7]، وظِلُّ اللَّيل: سوادُه؛ لأنَّه يستر كلَّ شيء، وظِلُّ الشَّمس ما سَتَرَتْهُ الشُّخوص مِن مَسْقَطِه[8]، ومِن هذا الأصلِ يُقال: أنا في ظِلِّك، ومنه: ظِلُّ الجَنَّة، وظِلُّ شجرها إنَّما هو سَتْرٌ[9].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 21/ 179.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 195.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 15/ 1404.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 225.
(5) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: 27.
(6) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: 26، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلل).
(8) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: 26، 27.
(9) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: 27، والنَّوويُّ، تهذيب الأسماء واللُّغات: 3/ 193، والحطّاب، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل: 1/ 389.

وأمّا الفَيء؛ فلا يكون إلّا بالعشيّ بعد الزَّوال، ولا يقال لِما قبله فيءٌ[1]، فالفيء هو الظِّل بعد الزَّوال خاصَّةً، وهو مِن الرُّجوع، ولا رجوع إلّا بعد زوال الشَّمس من جانبِ المَشرق إلى جانبِ المَغرب[2]، فإنَّما يُسمَّى بعد الزَّوال فيئًا؛ لأنَّه ظِلٌّ فاءَ من جانبٍ إلى آخَرَ، أي: رجعَ، والفَيء: الرُّجوع[3].

وحاصلُ ما سبقَ أنَّ الظِّلَ أعَمُّ من الفَيْء، فإنه يقال: ظِلُّ اللّيلِ، وظِلُّ الجَنَّةِ، ويقال لكلّ موضعٍ لَم تَصِلْ إليه الشَّمس: ظِلٌّ، ولا يقال الفيءُ إلّا لما زالَتْ عنه الشَّمس[4]، ولأنَّ في الظِّل معنى السَّتر؛ أوثرَ لَفْظُ (الظِّل) دون (الفيء) في قولِ الله ﷻ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾، أي: دُخان جهنَّم[5]، فدلَّ اللَّفظُ على عِظَمِ هذا الدُّخان[6] وكثافتِه[7].

الرَّميُ والقَذْفُ:

الـرَّمـي أخـصُّ مـن الـقَـذْفِ باعتبارِ مَعْرِفَةِ مَـكـانِ الـرَّمْـيِ ومُتَعَلّقاته

قذفُ الشَّيءِ المادّيِّ قد يكون دونَ معرفةِ المَسافة، التي يَصِلُ إليها المقذوف أو المكان الذي يصل إليه؛ ولذا أوثِرَ لفظُه في قول الله ﷻ: ﴿فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [طه: 39]، فهي حينئذٍ لم تكُن تَعرِف إلى أين سيصِل نبيُّ الله موسى ﷺ، ويُعبَّر بالقذف عن السُّرعة في وضعِ الشَّيء؛ ولذا أُطلِقَ على الوضع في التّابوت في قول الله ﷻ: ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ [طه: 39]؛ تمثيلًا لهيئة المُخفي عملَه، فهو يُسرِع وضْعَه من يدِه كهيئةِ من يَقذِف حجرًا ونحوه[8].

(1) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: 27، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلل)، والنَّوويُّ، تهذيب الأسماء واللُّغات: 3/ 193، والحطّاب، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل: 1/ 389.

(2) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (فيأ).

(3) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص: 27، 28، والنَّوويُّ، تهذيب الأسماء واللُّغات: 3/ 193، والحطّاب، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل: 1/ 389.

(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، والفيروزابادي، البصائر: (ظلل).

(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 136، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 8/ 306.

(6) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 23/ 95، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 162.

(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 435.

(8) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 216.

والرَّمي تُعْلَم فيه المسافة، ويُعلَم فيه المكانُ الذي يُرمَى إليه[1]؛ ولذا أوثِر لفظُ (الرَّمي) دون (القَذف) في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾، فالرَّمي لا يكون عشوائيًّا، ولذا أوثِر أيضًا في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، وفي قوله ﷻ: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾ [الفيل: 4].

الجِمال والإبِل:

الجِمالُ أخَصُّ من الإبل

لفظُ الإبِل يقال لمَسانِّها وصغارها، وليس لَها واحِدٌ من اللَّفظ[2]، والجَمَل: الذَّكَر من الإبل؛ إذا بَزَلَ[3]، أي: انشقَّ نابُه في السَّنة التّاسعة[4]، ولا يقال له: جملٌ إلّا بعد البُزول[5]، وهذا يدلُّ على أنَّه وصلَ إلى تمام ضخامتِه وعِظَم جِسمِه، وأنَّه قد بلغَ الغايةَ في سرعةِ حركتِه[6]؛ ولذا أوثِر لفظ (الجِمالة) دون (الإبل) في قول الله ﷻ: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾، ففيه إشارةٌ إلى عِظَمِ شَرَرِ النّار وسرعةِ حركتِه[7].

(1) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريُّ الجامع: 7/ 121.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبل).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (جمل).
(4) الجوهريُّ، الصِّحاح: (بزل).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (جمل).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جمل).
(7) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 19/ 165، والنَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 3/ 578، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 437.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والستون،
من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 65 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-17-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 65 : المجلد الخامس والستون، من سورة القِيَامة إلى سورة النَّازعَات الآية 26.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-17-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2525407 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"